أن تكون يهودياً إبان الهولوكوست (المحرقة) / بقلم الدكتور روبيرت روزيت

على اعتبار أنه تم عرض وقائع الهولوكوست والظروف التي أدت إليها وتداعياتها على مساحة تأريخية شاسعة فإنه بات من المستحيل في الوقت الحاضر طرح نموذج متكامل لفهم التجربة التي مرّ بها اليهود في دوامة الهولوكوست. ولا يسعنا في أحسن الأحوال إلا الإشارة إلى القواسم المشتركة أو نقاط التشابه في تجارب اليهود التي كانت أحياناً متقاطعة زمنياً أو مكانياً. كما أن بعض هذه التجارب تتشارك في صيغتها العامة فيما أنها تختلف إلى درجة كبيرة في تفاصيلها. غير أن تفاصيل الأحداث تصبح متقاربة أيضاً في أحيان أخرى. لقد تعرض معظم اليهود في أوروبا الخاضعة للهيمنة الألمانية في فترة الهولوكوست لممارسات جسدية قاسية من قبيل المجاعة والعطش والبرد القارس أو الحرارة الملتهبة والأمراض المضعفة والضرب المبرح والإصابات البدنية. أما الإجراءات النازية الرامية إلى تجريد اليهود من إنسانيتهم فقد أضافت عاملاً نفسياً مؤذياً إلى المعاناة الجسدية شأنها شأن حالات موت الأحباء التي أصبحت أمراً شبه محتوم.

يتسنى دراسة التجربة اليهودية إبان المحرقة من وجهات نظر مختلفة ومن ضمنها: مصير اليهود في بلد معيّن ؛ مصير اليهود في منطقة معيّنة ؛ مصير عائلة يهودية محددة ؛ أو مصير الأفراد. وقد تأثر مصير اليهود في جميع هذه المستويات بعوامل متعددة يشكل كل منها بدوره زاوية خاصة للنظر في التجربة اليهودية إبان المحرقة. على غاية من الأهمية أن نتطرق أولاً إلى مسار تتابع الأحداث التي مرّ بها اليهود وندرس تأثيراتها. يمكن القول إجمالاً إن اليهود لم يكونوا المبادرين إلى وقائع الهولوكوست بل أُرغموا على التجاوب معها. كما ثمة تفاوت في تطور الأحداث بين بلد وآخر وحتى بين مناطق متقاربة داخل نفس البلد. إن مسار الأحداث التي تعرض لها اليهود الألمان تحت الحكم النازي امتد ما بين عامَي 1933 و 1945 وكان مختلفاً أشد اختلاف عما شهده اليهود البولنديون الذين خضعوا للحكم النازي في الفترة ما بين 1939-1945.

إن امتداد الفترة الزمنية بحد ذاته يشير إلى وجه من الاختلاف حيث عانى اليهود الألمان من الاضطهاد الألماني على مدى 12 عاماً شهدت صعود ألمانيا النازية وهبوطها ، كما أنهم واجهوا سياسة التمييز العنصري النازي بكل امتداداتها وتجلياتها وتحولاتها إلى حين بلوغها ذروتها متمثلةً بقتل اليهود بصورة جماعية ومُمَنهجة. أما بالمقابل – وللسبب نفسه – فكان لديهم المزيد من الوقت مقارنةً مع الجاليات اليهودية الأخرى للتكيف مع الظروف التي تواجههم. من جانبهم تعرض يهود بولندا للحكم النازي لفترة امتدت ما بين ثلاث وست سنوات بالنظر إلى مناطق سكناهم في أنحاء بولندا بعد تعرضها للهجوم النازي في شهر أيلول سبتمبر من عام 1939 حيث مرّ بعضهم بفترة من "التحرر" لدى سقوطهم في أيدي القوات المسلحة السوفياتية. وقد واجه اليهود البولنديون سياسة الاضطهاد النازي في مرحلة أكثر تقدماً مما تعرض له اليهود الألمان قيما مضى حيث أصبحت الإجراءات الألمانية أشد كثافةً وصرامة وفتكاً بالنسبة لليهود أجمعين. وتختلف كلتا الحالتين عن التجربة التي خاضها اليهود في هنغاريا إذ إنهم تعرضوا للنفوذ النازي غير المباشر من خلال ممارسات السلطات الهنغارية نفسها في الفترة الواقعة ما بين 1938 ومطلع 1944 ثم تأثروا بالاحتلال النازي لبلدهم اعتباراً من مطلع 1944 وحتى ربيع العام التالي 1945. وبالتالي سقط اليهود الهنغاريون في أيدي آلية القتل النازية عندما كانت في غلوائها مما زاد من شدة معاناتهم قياساً إلى الجاليات اليهودية الأخرى. بيد أن عمليات الإنقاذ التي جرت على نطاق واسع في هنغاريا في تلك الفترة قد ساهمت في نجاة العديد من اليهود في بودابست وذلك لأن النازيين لم يباشروا إبادة اليهود الهنغاريين إلا في مرحلة متقدمة من الحرب علماً بأن ظروف الحرب في تلك الفترة 1944-1945 أتاحت المزيد من فرص النجاة قياساً بالمراحل السابقة من الحرب.

عندما نستطلع التجربة اليهودية إبان الهولوكوست يتوجب علينا أيضاً أن نأخذ عدداً من العوامل المؤثرة الأخرى بعين الاعتبار. إذ كانت أنظمة الحكم التي خضع لها اليهود مختلفة من بلد إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى في بعض الأحيان. لقد عاش بعض اليهود تحت الحكم النازي المباشر في أراضي الرايخ [ألمانيا] نفسها أو في بولندا المحتلة والمناطق المحتلة من الاتحاد السوفياتي على سبيل المثال ، بينما كان هناك يهود يقطنون في ظل أنظمة دُمى تابعة للنازيين الذين تلاعبوا في مصيرها عن بعد من قبيل سلوفاكيا أو كرواتيا ، في حين كان هناك يهود يقيمون في بلدان مستقلة تعاونت مع النازيين (على الأقل خلال جزء من فترة الحرب) مثل بلغاريا وإيطاليا وهنغاريا ورومانيا بالإضافة إلى يهود سكنوا في مناطق خضعت لبعض الوقت

لاحتلال شركاء ألمانيا النازية المنوَّه بهم. وقد تأثر نمط حياة اليهود وكذلك موتهم بالأوضاع المتباينة الآنفة الذكر.

إن النازيين لم يكوّنوا دوماً في المناطق التي احتلوها وتولوا إدارتها الأسلوب ذاته من نظام الحكم كما أنهم لم يعاملوا جميع السكان المحليين ذات المعاملة. لقد كانت هناك مناطق مثل بلجيكا حيث تولى الجيش الألماني تصريف الأمور فيما كانت مناطق أخرى مثل ما يُعرف باسم "المحافظة العامة" (generalgouvernement) (التي شملت جزءاً من بولندا المحتلة) حيث تم إنشاء إدارة مدنية تمتعت فيها وحدات النخبة النازية المعروفة اختصاراً ب- SS بالنفوذ الشديد. وصادف أيضاً أن يكون بلد أو منطقة ما يشهد المنافسة بين جهات مختلفة داخل المنظومة النازية من قبيل الجيش وال-SS والإدارة المدنية وكانت الكفة ترجح لصالح جهة معينة ثم تنتقل إلى أخرى. وقد أثرت هذه التباينات في عدة حالات على التجارب التي مر بها اليهود. لننظر مثلاً في حالة الدنمارك حيث اهتم النازيون حتى أواسط عام 1943 بإقناع الدنماركيين (الذين كانوا يرون أنهم ينحدرون من ذات السلالة العنصرية كالألمان أنفسهم) بالانضمام طوعاً إلى النظام الألماني الجديد في أوروبا. وبالتالي سمح نظام الحكم النازي للدنماركيين بممارسة مساحة من الحرية السياسية والكرامة الذاتية مما يُعدّ بدوره عاملاً هاماً في المحاولة الناجحة إلى حد بعيد التي قامت بها التنظيمات الدنماركية السرية لإنقاذ يهود البلاد في شهر أكتوبر تشرين الأول من عام 1943. وكان صراع القوة بين المسؤولين النازيين عاملاً حاسماً في قرارهم ترحيل اليهود الدنماركيين [إلى معسكرات الإبادة] أولاً ومن ثم تسرّب هذا القرار إلى التنظيمات السرية الدنماركية التي نظّمت عملية الإنقاذ المذكورة أعلاه. ويجوز مناقضة الحكم النازي للدنمارك بحكم القبضة الحديدية الذي مارسوه في المحافظة العامة (Generalgouvernement) في بولندا حيث كانت بالتالي نِسَب عالية من حالات الوفاة ونِسَب متدنية من اليهود البولنديين الذين تم إنقاذهم نتجت إلى حد ما عن هذا الحكم عديم الرحمة والليونة.

ومن العوامل الأخرى التي لعبت دوراً في حسم مصير اليهود وتجاربهم خلال الهولوكوست كل من التأريخ الخاص بالجالية اليهودية في كل بلد وشبكة العلاقات التي كانت تربط هذه الجالية مع الشعب المحيط بها والتوجهات لدى السكان غير اليهود إزاء اليهود. لم يكن اليهود ليستطيعوا الركون إلى أي دعم أو عون إلا قليلاً في المناطق حيث كان هناك تقليد راسخ منذ زمن بعيد من معاداة اليهود المكشوفة وهي مثلاً أوكرانيا وليتوانيا (غير أنه كانت هناك استثناءات في هذه المناطق أيضاً إذ كان المئات من الأشخاص القاطنين فيها الذين خاطروا بحياتهم من أجل إنقاذ

اليهود. أنظر أيضاً مادة "أنصار الشعب اليهودي"). إن الكراهية التي يستحيل تقريباً إدراكها إزاء اليهود الذين كانوا يبحثون عن معونة أو القرارات التي أقدموا على اتخاذها من منطلق عدم توقعهم أي مساعدة لهي أيضاً مكوّن هام من مكوّنات تجربتهم في تلك المناطق. أما في المناطق حيث كان مسار العلاقات بين اليهود وغيرهم أكثر رقة مثل إيطاليا وبلغاريا أو الدنمارك فكانت النشاطات الرامية إلى إنقاذهم أوضح تعبيراً ، وبالتالي صادفت اليهود هناك تجارب من المعاملة الكريمة وغير الأنانية الهادفة إلى إنقاذ حياتهم ليس من الجيران فحسب بل من الغرباء أيضاً.

إن العوامل الزمنية والمكانية أثرت إلى درجة كبيرة في خيارات الرد المتوفرة لدى اليهود. قبل نشوب الحرب (وبصفة رسمية حتى شهر أكتوبر تشرين الأول من عام 1941) كان بإمكان اليهود القاطنين في الرايخ [الألماني] تفعيل خيار الهجرة. ورغم أن هذا الأمر لم يكن سهلاً بأي حال من الأحوال إلا أن العديد من اليهود لجأوا إليه. أما في خضم الحرب فقد أصبح الفرار من الأراضي الخاضعة للحكم النازي أمراً مستحيلاً في بعض الأحيان ، وحتى في حالات ورود هذا الخيار فإنه صار أبعد منالاً مما كان عليه قبل اندلاع الحرب. أما مدى قابلية خيار الفرار من عدمه فكان يتوقف بصورة ملموسة على الجغرافيا بمعنى أنه كان من الأسهل إلى حد ما (رغم أنه لم يكن سهلاً قط) الفرار من البلدان التي كانت ذات حدود مشتركة مع الدول المحايدة في أوروبا مثل سويسرا والسويد وإسبانيا وتركيا (أما البرتغال التي كانت محايدة أيضاً فلم تتاخم حدودها أياً من البلدان المتحاربة). كما كانت الجغرافيا عاملاً حاسماً بالنسبة لفرصة الفرار من الغيتوات في أوروبا الشرقية. لقد وفرت الغيتوات التي كانت تقع بمحاذاة الغابات الكبيرة أو المستنقعات فرصة أفضل للفرار من الغيتوات البعيدة عن مخابئ طبيعية كهذه. إن الفرار إلى هذه المخابئ ، الذي كان يعني عملياً الانضمام إلى الأنصار (partisans) ، كان يمثل فرصة للنجاة أصبحت أقوى كلما تقدمت الحرب حيث غدت نشاطات الأنصار أكثر تنظيماً من ذي قبل. غير أن السخرية المأساوية في الأمر مردّها أن المراحل المتقدمة من الحرب شهدت عدداً أقل بكثير من اليهود الذين بقوا على قيد الحياة ليستطيعوا الفرار.

لقد خاض كل يهودي مر بفترة المحرقة سواء أبقي على قيد الحياة أم قُتل تجربة فردية خاصة به. لقد تحكمت عوامل عديدة في التجربة الفردية هذه ومن ضمنها عمر الفرد وجنسه ومركز العائلة والتعليم والمسؤوليات الواقعة عليه وشخصيته وخبرته المتراكمة في الحياة. مع أن هناك

الكثير من العوامل التي أثرت على التجربة الفردية إلا أن هناك ظروفاً مفصلية يجب عدم تجاهلها عند دراسة كيفية مرور الأفراد اليهود في فترة المحرقة:

1. لقد استهدف الاضطهاد النازي أي شخص اعتُبر يهودياً بحكم التعريف العنصري. وبعد الشروع في الحل النهائي أصبح أي يهودي يقيم في مرمى آلية القتل النازية يواجه حكم الموت.
2. بغض النظر عن شدة كفاحه لم يكن بإمكان أي يهودي قبضت عليه الشبكة النازية التحكم بمصيره إذ كانت قوى التدمير المهيأة ضده أقوى من أي دافع للبقاء على قيد الحياة لدى الفرد.
3. لقد كانت مسألة البقاء رهينة الحظّ على اعتبار أن قواعد صنع القرارات العادية التي كانت معتمدة قبل فترة المحرقة كثيراً ما أصبحت غير مواتية خلال تلك الفترة. لقد أصبح الوضع غير المسبوق مستعصياً على التحليل أو الفهم لمجرد كونه غير مسبوق. وبالتالي لم تكن العبر المستفادة في كثير من الأحيان مفيدة لمواجهة الأوضاع المتذبذبة. بل كان من المستحيل في ظروف كثيرة التكهن بدقة بعواقب قرار ما أو إستراتيجية معينة لتحقيق النجاة.

بما أنه يستحيل وضع نموذج أوحد للتجربة اليهودية خلال الهولوكوست فإننا نورد أدناه عدداً من الأمثلة التي تختلف مكانياً وزمنياً. أما محور النقاش الآتي فلا ينصب حول بلد أو جالية يهودية معينة وإنما حول الفرد. بطبيعة الحال ، وبما أنه لا يمكن عرض قصة كل يهودي خاض غمار المحرقة ، فلا بد من اللجوء إلى بعض التعميمات.

ألمانيا في فترة ما قبل الحرب 1933-1939:

في أعقاب صعود النازيين إلى الحكم عام 1933 أصبح يهود ألمانيا يواجهون سياسة من التمييز المتزايد الذي صار أكثر صرامة مع مرور الزمن. ويمكن النظر إلى هذه السياسة بإيجاز على اعتبار أنها انتقلت من عزل اليهود عن سائر الألمان – وهي سياسة استهدفت التأكيد لليهود أن ألمانيا لم تعُد تتّسع لإيوائهم – إلى ممارسة العنف بعد عام 1938 للضغط على اليهود وحملهم على الهجرة من ألمانيا.

لقد كانت إحدى أبرز التجارب التي مر بها اليهود الألمان ما وصفه المؤرّخ ماريون كابلان بصورة لائقة بأنه "الموت الاجتماعي" الذي كان ينطوي بالنسبة للفرد على جوانب عامة وخاصة على السواء. لقد نالت سياسة عزل اليهود بصورة ملحوظة من شعور اليهود بأنه يجوز

لهم تعريف أنفسهم على أنهم ألمان وربما قضت على هذا الشعور تماماً. وكان إقصاء اليهود عن هيئات مختلفة مهنية كانت أم اجتماعية أم ثقافية أمراً مؤلماً بالنسبة لهم. وقد أحسّ العديد من اليهود بأن وطنهم الذي كانوا هم أو أقرباؤهم قد حاربوا من أجل خلال الحرب العالمية الأولى بات يخونهم. وقد انتابت الصبيان اليهود الحيرة بسبب عزلهم عن المجتمع بالإشارة إلى تنظيمات مثل حركة الشبيبة الهتلرية (hitlerjugend). ورغم أن هؤلاء الصبيان أدركوا ولو جزئياً أن هذه التنظيمات تشجع على الكراهية إلا أنهم كانوا يتوقون إلى الشعور بالانتماء والمشاركة في النزهات والفعاليات الاجتماعية الأخرى. لدينا شهادات لصبيان يهود بأن النشوة العارمة اجتاحتهم عند مجيئ هتلر إلى بلدتهم لدرجة أنهم كانوا يؤدون التحية النازية رغم أنها كانت محظورة عليهم. إن اليهود الألمان دفعوا جسدياً ونفسياً ثمن الإهانات اليومية المتكررة وما هو أسوأ منها مما تعرضوا له. ويجب التنويه هنا مرة أخرى إلى أن معاناة الصبيان اليهود كانت أشد كونهم تعرضوا بصورة روتينية للاستهزاء والضرب من زملائهم غير اليهود.

أما على الصعيد الشخصي فقد راودت اليهود مشاعر مماثلة. حيث تخلى الأصدقاء غير اليهود في كثير من الأحيان عن أصدقائهم اليهود أو اكتفوا في أحسن الأحوال بزيارتهم سراً علماً بأن هذه الزيارات تقلصت تدريجياً مع مرور الزمن. أما الرجال الذين كانوا أركان أُسَرهم فإنهم كثيراً ما شعروا بالمهانة بسبب فقدان مركزهم الاجتماعي خاصةً وأن المراسيم الاقتصادية النازية حدّت بصورة متنامية من احتمالات كسب الرزق أو البحث عن فرص عمل مربحة. وكان بعض هؤلاء الرجال قد تولوا مناصب مرموقة اجتماعياً (أساتذة جامعات وأطباء وقضاة.. إلخ). وبالتالي فإن الأوضاع الاقتصادية المتضعضعة التي عاشتها الغالبية العظمى من اليهود الذين بقوا في ألمانيا كان لها أثرها الذي تجاوز تداعياتها النفسية لا سيما بعد نشوب الحرب التي جعلتهم يواجهون ظروفاً معيشية من المجاعة والبرد القارس (في الشتاء).

رغم ظهور الأوضاع المتضعضعة لليهود الألمان بمظهر شديد الوضوح على أساس النظر إليها بأثر رجعي والإدراك المتأخر للتأريخ إلا أنه كان يصعب على اليهود الألمان في تلك الفترة رسم صورة دقيقة لأوضاعهم الجديدة. وتنطبق هذه المقولة بالذات على السنوات الأولى من نظام الحكم النازي حيث أن جيرانهم كانوا يعاملونهم معاملة توحي بالمتناقضات. على سبيل المثال ، خلال يوم المقاطعة في شهر أبريل نيسان من عام 1933 (أنظر أيضاً مادة "المقاطعة المعادية لليهود") قام أفراد قوات العاصفة النازية (SA) بمراقبة المحلات التجارية اليهودية وتحذير زبائنها من مغبة الشراء من اليهود فيما أقدم بعض الزبائن غير اليهود وبصورة

متزامنة ومتعمدة بإتمام المعاملات مع المحلات اليهودية المذكورة. أما بعد صدور الكثير من المراسيم المعادية لليهود خلال عامَيْ 1933 و 1934 فشعر بعض اليهود بنوع من الارتياح لدى صدور قوانين نورمبرغ في شهر سبتمبر أيلول من عام 1935 التي سعت لتعريف هوية اليهودي وحطّت من منزلة اليهود وجعلتهم مجرد رعايا لا يتحلّون بصفة المواطنة. إذ كان هؤلاء اليهود يعتقدون بأن موقعهم في المجتمع الألماني – رغم تهميشه – أصبح أشد وضوحاً ولن يتم تعديله. غير أن الواقع كان بعيداً عن هذه التمنيات إذ لم تعُد ممتلكات اليهود بل حياتهم في مأمن. إن المشاغبات ضد اليهود في شهر نوفمبر تشرين الثاني 1938 (المعروفة باسم "ليلة الزجاج المحطَّم" kristallnacht) أسفرت عما تعدى الدمار الذي لحق بالممتلكات والأعمال اليهودية بحيث اعتدت الجماهير المهيَّجة خلال المشاغبات على منازل يهودية فيما جرت حملات اعتقال واسعة بين الرجال اليهود ومن ثم إيداعهم في معسكرات اعتقال. وبالتالي تبددت أشلاءً بقايا الشعور بالأمن الشخصي.

لم يكن واجباً على الأفراد اليهود طيلة الحقبة النازية تقييم أوضاعهم فحسب بل التفكير في الخيارات المتاحة أمامهم أيضاً. منذ مرحلة مبكّرة كان هناك الكثير من اليهود الألمان الذين اختاروا الإقدام على الانتحار كونهم شعروا بالعزلة والخيانة والإهانة والإهمال علماً أن حالات الانتحار تكررت لدرجة تحولها إلى مثار حديث بين الناس. وكان يُنظر إلى الانتحار بأنه بديل عقلاني عن الوضع المأساوي رغم النظرة اليهودية التقليدية إليه كمعصية.

كان الكثير من اليهود يتعذبون بفكرة الهجرة. إن مغادرة الوطن الأم ليست بالأمر الهين على أي حال وكان هذا الخيار يؤرق جنب اليهود الذين اعتبروا أنفسهم ألمان بصورة كاملة. وقد حدث مراراً أن أولياء الأمور كانوا يشجعون أبناءهم على المغادرة لأنهم أدركوا في وقت مبكر نسبياً أن مستقبلهم في ألمانيا النازية غير واعد. ولم تمرّ فترة طويلة حتى شُرع في إرسال الفتيات إلى الخارج أيضاً من خلال توظيفهن في الأعمال المنزلية. غير أن انفصام عُرى العائلات قد أدى بدوره إلى مشاكل من نوع جديد. أما الأطفال أو البالغون الذين كان أولياء أمورهم مسنّين فإن ضرورة التخلي عن أفراد عائلاتهم كثيراً ما جعلتهم يرجئون موعد الهجرة أو يتخذون قراراً بالبقاء رغم الأوضاع المتردية.

أما في حال اتخاذ القرار بالهجرة فإن العوائق التي كان من الواجب تخطّيها لغرض الخروج من ألمانيا ودخول بلد آخر اقتضت العزيمة والإصرار والتحلي بالصبر الشديد. كما كانت ضرورة

تمويل الهجرة تمثل مشكلة خاصةً منذ إقدام النظام الألماني على فرض قيود شديدة على إمكانية مغادرة اليهود مع أصولهم. أما بعد إتمام تدابير الهجرة فظل الناس ينتابهم القلق بالنسبة لمعيشتهم في المنفى من حيث تعاملهم مع اللغة والمجتمع الأجنبيَيْن واحتمالات كسب أرزاقهم. وقد سعت المنظمات اليهودية الألمانية جاهدة لتهيئة اليهود للعيش خارج ألمانيا.

يشار إلى أن الرغبة في الهجرة لم تَطل جميع اليهود الألمان خاصة في فترة ما قبل "ليلة الزجاج المحطّم" (Kristallnacht) كما أن بعضهم لم يكن بوسعه الإقدام على الهجرة حتى وإن أرادوا ذلك. ولكن مع مرور الزمن أصبحت مواجهة الأوضاع في ألمانيا أشد صعوبة أكثر وأكثر. وكان العديد من الأفراد اليهود قد استفادوا من فعاليات منظمات الجالية اليهودية حيث أنهم ، وإلى جانب حصولهم على مساعدات مالية ومادية ، قد وجدوا في حلقات الدراسة والأنشطة الثقافية المتنوعة التي جرت برعاية الجالية اليهودية ملاذاً روحانياً ودفـءاً إنسانياً. غير أن الحياة أصبحت لا تُطاق بعد نشوب الحرب بفعل الفقر المتزايد والحنين إلى أفراد الأسرة الذين هاجروا والإهانات المستديمة في الحياة العامة والعزل الاجتماعي وشظف العيش والعمل الجسدي المملّ. وكانت عمليات **الترحيل** إلى الشرق التي بدأت في خريف عام 1941 تمثل بالنسبة للغالبية الساحقة من اليهود الذين بقوا في ألمانيا بعد نشوب الحرب المرحلة الأخيرة من مراحل معاناتهم.

الغيتوات في بولندا قبل الإبادة

لم يلبث الألمان أن غزوا بولندا في شهر سبتمبر أيلول 1939 حتى بدأوا بالتعامل مع ما أسموه بالمشكلة اليهودية. إذ إنهم أصدروا سلسلة من التعليمات بالنسبة لذلك الجزء من الأراضي البولندية الذي خضع للسيطرة الألمانية حتى صيف عام 1941 حيث أكملوا احتلال بقية المناطق البولندية. وكان من ضمن هذه التعليمات تجميع اليهود في المدن الكبرى. إن المرسوم المعروف الذي أصدره راينارد هايدريخ يوم 21 من شهر سبتمبر أيلول 1939 وقّر الأرضية لما أصبح لاحقاً الغيتوات في أوروبا الشرقية في ظل الحكم النازي. وقد تم إنشاء الغيتوات في الفترة الواقعة ما بين خريف 1939 وربيع 1943. وتفاوتت الظروف فيها لتمتدّ ما بين بيئة شبيهة بمعسكر اعتقال مغلق وغيتوات مفتوحة أكثر. وكانت بعض الغيتوات مثل وارسو ولودج ضخمة ومكتظّة حيث أنها كانت تأوي مئات الألوف من اليهود فيما كانت هناك غيتوات أخرى لم تحتو إلا على عدة آلاف من السكان. وكانت حصيلة الموت بفعل المجاعة والأمراض مرتفعة

في بعض الغيتوات فيما كان التجويع مشهداً غير مألوف في الغيتوات الصغيرة في المناطق الريفية. وقد أقام اليهود في الغيتوات المختلفة لفترات متباينة ولم تتعرض جميع الغيتوات لعمليات الترحيل في الوقت ذاته أو بنفس الطريقة. وتم القضاء على الغيتوات الأصغر حجماً بضربة أو ضربتين قاصمتين فيما استمرت إجراءات القضاء على الغيتوات الأكبر عدة أسابيع وربما شهور وحتى – في حالة مدينة لودج – بضع سنوات. ومن الصعوبة بمكان طرح التعميمات بالنسبة للتجربة اليهودية في الغيتوات بالنظر إلى تعدد أشكالها.

في فترة ما قبل الغزو الألماني لبولندا وقبيل إنشاء الغيتوات بأعداد كبيرة تفجّرت موجات من العنف النازي الهمجي ضد اليهود. حيث تم إهانة اليهود بصورة روتينية والانقضاض عليهم ضرباً على الملأ خاصةً عندما نتحدث عن اليهود الملتحين الذين كانوا يرتدون اللباس التقليدي ، فضلاً عن اختيار اليهود عشوائياً لأداء العمل القسري. ورغم تفاوت الإحصاءات إلا أنه من الواضح أن الآلاف من اليهود قد قُتلوا بسبب الإجراءات الوحشية التعسّفية وغير المنضبطة هذه.

وقد حاول العديد من اليهود خلال فترة الغزو الألماني والأسابيع التالية البحث عن مأوى للاحتماء من هذا الاضطراب في الوقت الذي كان يهود آخرون يحملون ذكريات طيبة عن التصرفات الألمانية الإنسانية خلال الحرب العالمية الأولى وبالتالي كانت الآمال تراودهم بأن يكون الاحتلال الألماني غير مؤذٍ هذه المرة أيضاً. بما أن اليهود لم يستطيعوا معرفة الأماكن الأكثر أمناً فإنهم كانوا يميلون بداية إلى الفرار من جبهة المعارك المتقاربة بسرعة. وعندما أدركتهم الجبهة كان هؤلاء اليهود النازحون يحاولون إما العودة إلى منازلهم أو الوصول إلى أماكن حيث كان يقيم أقرباء لهم. وعندما تبيّن أن جزءاً من بولندا صار يخضع للحكم السوفياتي هرب نحو 300 ألف يهودي إلى تلك المنطقة أملاً في إيجاد ملاذ آمن لهم. ويدل هذا الأمر على أن الكثير من اليهود – وحتى في فترة ما قبل إنشاء الغيتوات – كانوا يشعرون بالرعب والذعر عقب الأوضاع الفوضوية عامةً والممارسات الوحشية النازية بحقهم. وقد وجد كثيرون منهم أنفسهم بين جموع غفيرة من الناس الهاربين في طرقات بولندا أو أنهم صاروا لاجئين دون مأوى محرومين من أي روابط مجتمعية طبيعية قد تمنحهم العون في ذلك الوقت المضطرب.

وكانت إجراءات دخول الغيتوات ترافقها المشاعر القوية الجياشة بالنسبة لغالبية كبيرة من اليهود. وكان من الواجب اختيار بعض الأمتعة إذ كان من غير الممكن غالباً نقل كل محتويات البيت بل لم يكن بالإمكان أحياناً إلا حمل بعض الأمتعة يدوياً. ثم استدعت الحاجة نقل حاويات

الأمتعة المختارة إلى داخل أرض الغيتو على وجه السرعة. وأُجبر معظم اليهود على ترك منازلهم لأجل دخول الغيتو مما كان يعني البحث عن مسكن جديد. أما أولئك اليهود الذين بقوا في منازلهم كونها تقع داخل منطقة الغيتو فقد وجدوا أنفسهم فجأة يقيمون بمعية ناس آخرين كثيراً ما كانوا غرباء تماماً عليهم. وقد تجلّت هذه الحقيقة تحديداً عندما تم نقل مجموعة من يهود قرية أو بلدة صغيرة إلى الغيتو في المدينة المجاورة لها. كما أن مرحلة الدخول إلى الغيتو كانت تترافق بإجراءات قاسية من جانب أفراد الشرطة والحراس الذين راقبوها وعندما حدث ذلك كان القادمون الجدد يصلون إلى الغيتو وهم يترنحون تحت وقع المواجهات الشرّيرة التي صادفتهم. ومن لحظة دخولهم الغيتوات تراجعت الظروف المعيشية لليهود بصورة حادّة مما كان سبباً آخر في مشاعر اليأس والضياع التي كانت تجتاحهم.

بعد صدمة الدخول إلى الغيتو كان الهم الرئيسي لليهود البحث عن سبل تأمين مستلزمات الحياة. وكان العثور على فرص عمل أمراً غاية من الأهمية. كما أن عالم الغيتو كان يشهد تقويضاً للهرم الاجتماعي السابق إذ إن المثقفين والفنانين وأصحاب المهن الحرة لم يستطيعوا المساهمة كثيراً في اقتصاد الغيتو الذي كان يقوم على الصناعات الخفيفة والتجارة والمقايضة "غير المشروعة". وكان صراع البقاء الذي خاضوه مروّعاً وترافق بشعور عميق من الامتهان. وكان الكثير من الأشخاص من أبناء الطبقات الوسطى يبيعون أمتعتهم إلى حين نفاد كل ما لديهم. أما هؤلاء الذين صعدوا إلى قمة الهرم وأصبحوا من كبار المسؤولين في الغيتو فكانوا من الحرفيين والتجار الصغار أو من ذوي الخبرات السابقة في تجاوز أحكام القانون. في ذلك العالم الذي انقلب رأساً على عقب ، حيث كان الامتثال للقانون كثيراً ما يعني الموت ، أصبح المسؤولون على فرض القانون من المجرمين فيما أقدم آخرون على خرق القانون ليس من منطلق الجشع بل لغرض البقاء على قيد الحياة أو لأسباب أخلاقية.

يشار إلى أن الغيتوات تفاوتت من حيث تعرضها للمجاعة أو التجويع والأمراض المعدية. غير أن الغيتوات التي كادت تنعدم فيها حتى فرص الحصول على وجبات الغذاء الضئيلة التي خصصتها السلطات الألمانية هي التي عانى معظم سكانها من المجاعة المستديمة واعتلال صحتهم مما آل بهم في نهاية المطاف إلى الموت إما جوعاً أو بسبب الأمراض التي انتابت أجسادهم المكسّرة. وقد أصبحت إمكانية الحفاظ على الصحة العامة والشخصية على السواء شبه مستحيلة في كثير من الأماكن التي شهدت اكتظاظاً سكانياً. وبالتالي نشأت الظروف التي تشكل أرضاً خصبة للأمراض والأوبئة. وقد أصبحت حالات الموت ظاهرة واسعة النطاق في

الغيتوات البولندية الكبرى (في وارسو ولودج) بسبب تردي الظروف الصحية فيها. إذ صارت حالات الموت في شوارع الغيتو مألوفة لدرجة أن السكان لم يكترثوا بها. وكثيراً ما استحال دفن الموتى بصورة لائقة حيث تم في وارسو إلقاء جثثهم في مقابر جماعية ضخمة. وبالتالي كانت غالبية سكان الغيتوات الكبرى إما في حالة الحداد [على رحيل أعزائهم] أو في حالة الخوف من طرق الموت أبوابهم في كل لحظة.

أما الأسرة فقد سُحقت سحقاً في ظروف الغيتو. حيث كانت الأسرة من ناحية مصدراً للعزاء والدعم بالنسبة لكثير من سكان الغيتو إلا أن الإجراءات النازية أدت من ناحية أخرى إلى تفكك الأُسَر من خلال فصل أفرادها عن بعضهم البعض أو موتهم. وقد شُرع منذ أيام الاحتلال [النازي] الأولى في تجميع الرجال اليهود لغرض تشغيلهم في العمل القسري. وعلى الرغم من أن هذه الإجراءات صارت أكثر نظاماً بعد تولي الكثير من المجالس اليهودية في الغيتوات (المعروفة باسم judenraete) الإشراف عليها رغبة في جعلها أقل عشوائية ، إلا أن العمل القسري خاصةً في المعسكرات بات يعني انفصال أفراد الأسرة عن بعضهم البعض لفترة طويلة. وإذا حالف الحظ الآباء وأبناءهم الأكبر سناً ليجتازوا هذه المحنة وهم أحياء فإنهم كثيراً ما عادوا إلى أحضان عائلاتهم منكسرين جسدياً وروحياً. ونظراً لأن الرجال قد أُبعدوا أو عجزوا عن العثور على فرص عمل أصبحت العديد من النساء اليهوديات في بولندا في منزلة رؤساء عائلاتهن شأنهن شأن النساء في ألمانيا. كما أصبحت رئاسة الشبان لعائلاتهم مشهداً مألوفاً كونهم أشد كفاءة في سوق العمل وأفضل تأقلماً مع سير الحياة في الغيتو.

لقد وجد سكان الغيتو أحياناً متنفساً مؤقتاً لهم من اجتياح الكآبة والأسى والظروف التي كانت تجرّدهم من إنسانيتهم وذلك من خلال ممارسة النشاطات الثقافية والتربوية والسياسية سواء علناً أو سراً. وكان هؤلاء الأشخاص يشعرون بأن حياتهم أكثر طبيعية بفضل حضورهم العروض وحلقات الدراسة والمناقشات السياسية خاصةً تلك المتعلقة بأرض إسرائيل البعيدة عنهم والتي كانت قلوبهم تحنّ إليها. أما اليهود المتدينون فقد استعادوا المشاعر ذاتها بفضل ممارساتهم اليومية لأحكام الشريعة اليهودية التي كان الالتزام ببعضها عسيراً وربما مستحيلاً في ظل الحكم النازي. وقد جعلت حلقات دراسة التوراة والكتب المقدسة هؤلاء يتجاوزون مشاكلهم اليومية ولو إلى حين. كما كانت الصلاة ، سواء أكانت صلاة الجماعة أم صلاة الفرد ، تمنح الفرد الشعور بأنه يقوم بشيء ما لتحسين أوضاعه علماً بأن أداء الصلوات في أوقات المحنة يتماشى مع

الحكمة اليهودية منذ القِدم وكأن النجاة لن تأتي إلا من الله ولكن الفرد في الوقت ذاته يتحرك وكأنه وحده قادر على تحسين أوضاعه.

وقد وجد بعض سكان الغيتو متنفساً هاماً لهم بالكتابة حول تجاربهم إذ تم حفظ المفكّرات مما يجعل ما تبقى منها مصدراً هاماً لفهم كيفية مواجهة الناس لظروف الحياة والموت في الغيتو (أنظر أيضاً: مفكرات المحرقة). إننا نعلم بالاستناد إلى المفكرات التي وضعها مدوّنون من أمثال حاييم كابلان وعيمانويل رينغلبلوم (الذي كان القوة الدافعة لإنشاء الأرشيف في غيتو وارسو المعروف ب – عونيغ شابات [متعة السبت]) كم كانت الكتابة حيوية بالنسبة لهم. كما كانت الصحافة السرية مصدراً للمعلومات ومَلهمة بالنسبة للعديد من سكان الغيتوات الأكبر حجماً.

أما موقف سكان الغيتوات من القيادة اليهودية الرسمية (Judenrat) فقد كان متبايناً بحكم الظروف المتغيرة مع مرور الزمن وفي ضوء الاختلافات بين الأفراد. لقد أظهر الباحث أهارون ڤايس في دراسته الشهيرة حول أعضاء المجالس اليهودية (Judenrat) أنهم رفضوا بغالبيتهم ارتكاب أعمال ذات طابع لا أخلاقي جليّ وإنْ رضخ بعضهم للمطالب النازية تحت وطء التهديدات بالمساس بهم شخصياً. ولم يكن سكان الغيتو واعين دوماً بالنشاطات التي أقدمت عليها مجالس ال-Judenrat في دوائر مغلقة إلا أنهم تأثروا عميقاً بعواقب هذه النشاطات. وهناك بعض من المدوّنين والناجين الذين أبدوا تفهّمهم للمعضلات التي كانت القيادة اليهودية تواجهها آنذاك مما جعلهم يمتدحونها عامةً بينما كان هناك آخرون أنحوا باللائمة على هذه القيادة بسبب الفظائع التي تعرضوا لها. إن مسألة تصرفات القيادة اليهودية ومقاربة اليهود لهم تشكّل موضوعاً معقداً لا يزال قيد البحث والتمحيص. أما قضية تشكيل التنظيمات السرية المسلحة التي صارت جزءاً هاماً من الحياة في كثير من الغيتوات فسيتم بحثها أدناه.

اليهود في الأراضي الغربية للاتحاد السوفياتي بعد الغزو الألماني:

إن يهود دول البلطيق (إستونيا ولاتفيا وليتوانيا) وبعض أجزاء بولندا التي خضعت للحكم السوفياتي في بداية الحرب واجهوا متغيرات دراماتيكية في حياتهم. إذ كان فرض نظام الحكم السوفياتي يعني وضع حد للحياة المجتمعية اليهودية التي كانت قائمة في فترة ما قبل الحرب مهما كانت مهتزّة. وأصبح لزاماً على الجميع مسايرة العقيدة السوفياتية مما كان أمراً مؤلماً بالنسبة لهم باستثناء تلك القلة اليهودية التي كانت تدعم النهج السوفياتي. على كل حال كان

مصير اليهود في دائرة النفوذ السوفياتي أفضل بكثير من نظرائهم الذين خضعوا للاحتلال الألماني. إذ لم تتم ملاحقة اليهود بصورة مكشوفة ما عدا أولئك منهم الذين اعتقد النظام السوفياتي بأنهم أو المجموعات التي كانوا ينتمون إليها لن يتكيفوا معه. أما هؤلاء فقد تم إبعادهم إلى داخل الأراضي السوفياتية مما ساهم لاحقاً – وبصورة لم تتبيّن إلا فيما بعد – في إنقاذ حياتهم كونهم أصبحوا بعيدين عن قبضة الألمان.

عندما غزت القوات المسلحة الألمانية أراضي غرب الاتحاد السوفياتي في شهر يونيو حزيران 1941 طرأ تغيير أشد حدّة وهلاكاً على حياة اليهود. وقد حاولت جموع غفيرة من اليهود المصابين بالهلع الفرار شرقاً إلى داخل الأراضي السوفياتية كلما اقتربت جبهة القتال من مناطق سكناهم. غير أن طرق الفرار سُدت أمام معظمهم حتى وإنْ شهدت المناطق التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفياتي قبل عام 1939 عمليات منظمة تهدف إلى نقل الأشخاص والمعدات إلى عمق الأراضي السوفياتية. وبالتالي تم إعادة إنشاء مصانع كاملة في عمق الأراضي السوفياتية وإجلاء حوالي 5 ملايين نسمة بينهم حوالي مليون يهودي. كما بقيت عدة ثغرات مفتوحة في بيلاروس وأوكرانيا رغم القتال الذي دار هناك مما سمح بالفرار عبر خطوط الجبهة.

كلما التهم الألمان المزيد من الأراضي قام السكان المحليون وبحضّ من المحتلّين بمهاجمة اليهود في كثير من القرى والبلدات بضراوة والفتك بهم في مجازر. أما بعد ذلك بفترة وجيزة حيث تم تعزيز وحدات التدخّل النازية (einsatzgruppen) بوحدات عسكرية نظامية وقوات من الشرطة وعناصر محلية فبدأت عمليات قتل اليهود بصورة جماعية مُمَنْهجة. وبالتالي فإن اليهود الذين مارسوا حياة طبيعية نوعاً ما تحت الحكم السوفياتي وجدوا أنفسهم بغتةً عرضةً لعمليات اقتلاع من منازلهم ثم اقتادوهم – وكثيراً ما كان مَن اقتادهم مِن جيرانهم - تحت وابل من الإهانات والضربات إلى أطراف بلداتهم حيث تم تصفيفهم على امتداد خنادق قاموا بحفرها بأنفسهم أو أجبروهم على الوقوف على شفا وهد حيث حصد الألمان أرواحهم دون رحمة رمياً بالرصاص.
ولم تدَع هذه الحملات الشريرة المفاجئة التي تم ارتكابها بكثافة وحماس مجالاً للرد. ولولا إفادات عدد من الأشخاص الذين لم يُقتلوا بل بقوا على قيد الحياة رغم هذه الفاجعة لكُنّا قد ظللنا دون ما يجعلنا نفهم – ما عدا عن طريق التخيّل - كيف أمضى هؤلاء اليهود آخر لحظات حياتهم.

وقد أنشأ الألمان الغيتوات خلال حملة القتل الشعواء هذه وفي بعض الأحيان فور عملية القتل (aktion) الأولى. وكانت هذه الغيتوات تشبه نظيراتها في بولندا بيد أنه كانت هناك نقطة اختلاف حاسمة بين كلتيْ الحالتين إذ إن اليهود في الغيتوات الجديدة قد خبروا عمليات القتل الواسعة النطاق لأحبّائهم وأصدقائهم وجيرانهم ، كما بلغت مسامع قلة منهم روايات أولئك اليهود الذين صمدوا بأعجوبة القتل رمياً بالرصاص. ولدى إنشاء الغيتوات الجديدة كان نسيج الحياة قد مُزق إرباً إرباً. لذا فبالإضافة إلى ضرورة التعامل مع خطورة الوجود في الغيتو كان على هؤلاء اليهود التكيف مع حملات القتل الهائجة التي تعرضوا لها أولاً. وكان بعض اليهود قد ظنوا أن عمليات القتل هذه لم تكن إلا حوادث عنف وقعت وانتهت إلى غير رجعة.

وقد أصبحت الحياة بالنسبة لمعظم سكان الغيتو صراعاً يومياً من أجل البقاء بمعنى الحصول على الطعام والأردية والتدفئة خلال الشتاء وصيانة كرامتهم الإنسانية. في منطقة ترانسنستريا (transnistria) التي خضعت للإدارة الرومانية ، على سبيل المثال ، اختلط اليهود الذين تم طردهم من بسارابيا (bessarabia) وبوكوفينا (bukovina) ببقايا سكان المنطقة اليهود. وقد بدأ اليهود الرومانيين الذين أُبعدوا إلى تلك المنطقة يتلقون خلال فصل الشتاء 1941-1942 بعض المساعدات من يهود رومانيا مما جعل زعماء اليهود الرومانيين المبعَدين يواجهون معضلة وهي إما الاحتفاظ بهذه المساعدات الزهيدة لأنفسهم على أمل نجاحهم في اجتياز فصل الشتاء وإما تقاسمها مع اليهود المحليين علماً أن المساعدات لما كانت تكفي لسد حاجات جميع اليهود هناك. وكانت هذه المعضلة المستعصية تمثل حالة لا يمكن كسبها تحت أي ظرف.

وقد تمنى اليهود على امتداد الأراضي السوفياتية في تلك الفترة أن تكون عمليات القتل قد انتهت. غير أن قلة قليلة بينهم خاصة بين أبناء الشبيبة قد توصلت إلى قناعة بأن ما تعرضوا له ليس حوادث معزولة عن بعضها البعض من القتل. وعُقد اجتماع صار فيما بعد مشهوراً خارج مدينة فيلنيوس حيث تداول أبا كوفنير ورفاقه في حركة الشبيبة الصهيونية في معنى موجة القتل التي شهدتها فيلنيوس. وقد يكون الشاب كوفنير أول قيادي يهودي قفز قفزة إلى الأمام من حيث فهمه على أساس معلومات جزئية تخص البلدات والقرى اليهودية المجاورة حقيقة ما يجري إذ إنه توصل إلى استنتاج بأن النازيين يسعون لقتل اليهود بصورة مُمَنهجة مما يحتم على اليهود أن يحاربوا بالسلاح حكم الإعدام الجماعي الصادر بحقهم. غير أن في غيتو فيلنيوس نفسه وحتى بعد عدة عمليات قتل (aktionen) صغيرة متتالية سارت القيادة اليهودية الرسمية في اتجاه مغاير. إذ كانت هذه القيادة وخاصة رئيس المجلس اليهودي (Judenrat) جاكوب غينس

تعتقد بأنه يمكن من خلال جعل القوى العاملة في الغيتو ذات قيمة بالنسبة للألمان ضمان نيل اليهود معاملة أفضل وإبقاء الكثيرين منهم على قيد الحياة إلى حين التحرير من القبضة النازية.

وكان غينس وسكان غيتو فيلنيوس قد عملوا بدأب وبذلوا قصارى جهدهم لجعل حياتهم طبيعية من خلال ممارسة فعاليات ثقافية وتربية الأطفال والصبيان المتبقين. أما كوفنير وأتباعه فواصلوا مساعيهم لتنظيم صفوفهم لكنهم قرروا عدم الاضطلاع بالمقاومة المسلحة داخل حدود الغيتو إلا في حالة إشرافه على التدمير النهائي. وكان هذا الموقف ينبع من إدراكهم لخطورة المسؤولية التي يتحملونها. إنهم فهموا أن أي تمرد لن يؤدي إلى إنقاذ جميع سكان الغيتو بل إن العديد ممن لم يختاروا نهج الرد [المسلح] سيموتون فوراً على أثر التمرد. كما أنهم أدركوا أن الفرار إلى الأنصار (partisans) سيجلب عمليات انتقام ألمانية بحق ذويهم وجيرانهم الأبرياء الذين سيتم إعدامهم رداً على الفرار. رغم ذلك ثار هؤلاء الشبان عندما اعتقدوا بأن مرحلة القضاء على الغيتو صارت وشيكة. ولم يدُم هذا التمرد طويلاً لأن سكان الغيتو لم يدعموا القتال. وعندها فرّ كوفنير ورفاقه ، مثلهم مثل الشبان في كثير من الغيتوات التي كانت تقع في الأراضي السوفياتية سابقاً ، إلى الغابات لمواصلة القتال بصفة أنصار. وكان فرار كوفنير من الغيتو يترافق بقرار شخصي معذّب إذ إنه أبلغ والدته بأن المقاتلين الشبان لن يصطحبوها معهم لأنها قد تجبرهم على إبطاء وتيرة هروبهم وتُعرضهم جميعاً للخطر. أما الألمان فأغلقوا الغيتو – الأمر الذي لم ينووا القيام به قبل التمرد – ورحّلوا يهود فيلنيوس المتبقين إلى معسكرات للعمل القسري.

الترحيل إلى معسكرات الإبادة:

في الوقت الذي ناقش فيه الشبان اليهود في فيلنيوس مغزى موجة سفك الدماء التي تعرض لها اليهود على امتداد ستة أشهر ، كانت آلية القتل الألمانية قد انتشرت لتصل إلى غيتوات بولندا أيضاً ومنها إلى سائر الأراضي الأوروبية الخاضعة للحكم الألماني. وقد أمر الألمان مجالس اليهود (Judenraete) في كثير من الغيتوات بتنظيم وصول اليهود إلى نقاط تجميع. كما أُجبرت الشرطة اليهودية في كثير من الأحيان على حشد هؤلاء اليهود الذين ساء حظهم فيما شاركت وحدات الشرطة البولندية أو وحدات ألمانية مختلفة في بعض عمليات التجميع الأولية هذه. وقد ازدادت عمليات التجميع عنفاً مع مرور الزمن إذ أقدم الألمان وأتباعهم بصورة معتادة على قتل المسنّين والمرضى أو اليهود الذين رفضوا الوصول إلى نقاط التجميع طوعاً. وقد استجاب العديد من الزعماء اليهود للمطالب النازية بدعم عمليات الترحيل إلا أن بعضهم رفض

ذلك مما أدى إلى قتلهم فوراً. وأصبحت قصة رئيس مجلس اليهود في غيتو وارسو آدم ثشِرنياكوف معروفة إذ إنه أقدم على الانتحار حينما طولب بتسليم النازيين قوائم بأسماء اليهود المزمع ترحيلهم.

وقد تدافع اليهود طلباً للحماية في ظل عمليات الترحيل. وقد حدث أن يكون أولئك اليهود الذين كانوا يعملون خاصةً في مشاريع ذات قيمة بنظر السلطات الألمانية قد مُنحوا مهلة أخرى لممارسة حياتهم. غير أن هذه الحماية كانت في حالات كثيرة تقتصر على عدد محدود من أفراد العائلة. وكان اتخاذ القرار باختيار مَن يبقى على قيد الحياة من عدمه أمراً لا يُطاق مما جعل عائلات كثيرة قد لا يتبيّن عددها أبداً عاجزة عن هذا الاختيار المستحيل. وكان هناك يهود آخرون توجهوا إلى أعضاء مجلس اليهود أو الشرطة اليهودية بطلب الحماية إلا أن النتائج التي أفضت إليها هذه الطلبات اختلفت باختلاف طبيعة الطلبات ذاتها. وكانت النتيجة الثابتة الوحيدة لمثل هذه الطلبات هي منح الفرد أو أسرته فسحة زمنية قصيرة للنجاة من الإعدام.

وقد حدث أحياناً أن يكون يهود أحد الغيتوات قد تلقوا تعليمات بالاحتشاد في نقطة تجميع معينة حيث خضعوا لعملية فرز (selektion) من قبل الألمان علماً بأن عمليات الفرز هذه تكررت بصورة أكثر كثافة خلال حملات الترحيل إلى معسكرات الموت فيما بعد. وكان اليهود ينتظرون في بعض الأحيان مدة ساعات بل أيام إلى أن قابل الألمان متطلبات حصّة الترحيل. وكان اليهود ينتظرون دوماً طيلة هذه الفترة دون طعام أو ماء سواء أكان ذلك في شمس الصيف القائظة أو بلل المطر أو برد الشتاء القارس. وهناك روايات عديدة لأولياء الأمور الذين رافقوا أطفالهم أو لأطفال اختاروا بمحض إرادتهم الانضمام إلى أولياء أمورهم في قطارات الترحيل.

من الصعوبة بمكان معرفة هل – ومتى – أدرك اليهود في أوروبا الشرقية أن عمليات الترحيل تعني الموت. لقد اختلف مستوى هذا الإدراك تبعاً للمواقع والفترات المختلفة كما أنه كان متفاوتاً بين فرد وآخر. غير أنه منذ البداية ، وعلى الرغم من الأكاذيب النازية ، أدرك العديد من يهود الغيتوات أن عمليات الترحيل هي خطوة شريرة مستندين بذلك إلى التجارب التي مروا بها خلال جولات التجميع إلى العمل القسري.

كان هناك من اليهود الذين حاولوا الفرار من نقطة التجميع. حيث كانت الغابة مجاورة وربما لا تعدو المسافة إليها بضعة أمتار كان هناك من الأفراد الشجعان الذين ركضوا باتجاهها مما كان سينقذ حياتهم أو يؤدي إلى مقتلهم بطلقة نارية في الظهر. كما حاول آخرون التسلل والاختباء خاصةً بعد أن قلّت يقظة وانتباه حراسهم بعد ساعات مطولة من الانتظار. وتوجد لدينا أيضاً إفادات قليلة بمقاومة جماعية سواء أكانت تلقائية أم مخططاً لها إلا أنها انتهت دوماً بمجزرة في المكان لم ينجُ منها إلا القليلون. وبالتالي فإن اليهود الذين كانوا ينتظرون ترحيلهم واجهوا حالة تنعدم فيها الخيارات الواضحة وتشبه نوعاً من الرهان الذي من شأنه أن يفضي إلى الموت حالاً.

وقد حدث أن يكون اليهود قد شعروا بعد محنة التجميع والانتظار إلى ما لا نهاية بنوع من الارتياح لدى صعودهم قطار الترحيل غير أن هذا الارتياح لم يدُم طويلاً. إذ كان الألمان ومساعدوهم يحشرون اليهود داخل القطارات التي كانت مكوَّنة عادةً من عربات شحن أو عربات مفتوحة لنقل الأبقار. وقد شدد معظم الناجين الذين أدلوا بإفاداتهم حول رحلات القطارات هذه على المعاناة الجمة خلال الرحلة. وكان من الممكن أن تستمر الرحلة ساعات أو أياماً وحتى أسابيع بما يتوقف على نقطة الانطلاق والمسافة الواجب قطعها إلى معسكرات الإبادة والظروف العامة لحركة السكك الحديدية. وقد اجتاز يهود سالونيك على سبيل المثال مسافة هائلة إذ تم ترحيلهم في الفترة ما بين مارس – آذار وأغسطس – آب 1943 على متن عربات لنقل الأبقار من اليونان مروراً بصربيا وكرواتيا ثم فيينا في النمسا وصولاً إلى بولندا.

باستثناء عمليات ترحيل اليهود الألمان لم تكن عربات القطارات تتسع للجلوس أو الرقود كما أنها لم تسمح إلا بتنفس الهواء الملوث. وفي ظل الظروف الفظيعة داخل العربات فارق العديد من اليهود الحياة حيث لم يُسمح لجميع الركاب في العربة إلا باستعمال سطل واحد لقضاء حاجاتهم كما لم توفَّر لهم كميات كافية من الغذاء والماء فضلاً عن مشاعر الرعب والبؤس التي اجتاحتهم لدى استشراف مستقبلهم الغامض. وعندما كان القطار يصل إلى المعسكر وكانت أبواب العربات تُفتح كانت نفحة من الهواء تدخل العربة مما جعل الركاب المعذبون يشعرون بلحظة ارتياح سرعان ما زالت.

أما التنظيمات السرية اليهودية فقد نشأت بصفة عامة بعد أول تجربة من الترحيل (أو ، كما شهدنا ذلك في الأراضي السوفياتية ، بعد حملات القتل الجماعي الأولى). وقد اعترضت

العوائق الكثيرة طريق إنشاء التنظيمات السرية المسلحة داخل الغيتوات. إذ اقتضت الضرورة أن يتوافق اليهود الذين كانت خلفياتهم العقائدية ومواقفهم السياسية متباينة على سلسلة من المعضلات. وكان عليهم أن يقرروا ما إذا كانوا يرغبون في تحمل المسؤولية عن دعم المقاومة المسلحة فيما كانوا واعين لاحتمال أن يؤدي ذلك إلى قتل العديد من اليهود الآخرين المتحفظين من هذه المقاومة. كما كان عليهم حسم أمرهم ما بين القتال داخل الغيتو أو الفرار إلى الغابات والانضمام إلى الأنصار أو القتال بقصد الهروب إلى الغابة خلال التمرد. وكان عليهم أيضاً أن يحددوا التوقيت المناسب لمباشرة التمرد وما إذا كان عليهم حتى ذلك الحين دعم القيادة اليهودية الرسمية أم معارضتها. وفي كثير من الأحيان تم اتخاذ هذه القرارات في ظل بوتقة الترحيل التي كانت تذيب أيضاً العديد من الخلاقات التي حالت دون التوافق سابقاً.

وكانت أشد المعضلات إزعاجاً بالنسبة للفرد تدور حول مسؤولياته تجاه عائلته وأصداقئه. إذ كان الانخراط بالتنظيم السري المسلح لم يعرّض الفرد وحده للخطر الداهم بل جميع أبناء عائلته وأقربائه أيضاً. وكان الكشف عن عضو التنظيم السري سيؤدي ، كما حدث بالفعل أحياناً ، إلى العقاب الجماعي الذي يطال كل مَن كان على صلة به. وليس من الغرابة أن يكون العديد من الذين التحقوا بالتنظيمات السرية من أبناء الشبيبة كونهم أقل ارتباطاً بالمسؤوليات العائلية من البالغين الأكبر سناً. ولا مفاجأة أيضاً بأن تكون معظم التنظيمات السرية قد اتحدت في المرحلة التي أخذ سكان الغيتو يشعرون فيها بأنه لم يعُد هناك ما يخسرونه بمقاومة الطغاة بالسلاح. لقد أحسوا بأنه صدر بحقهم حكم بالإعدام كما لم يعُد لدى الكثيرين منهم أي مسؤوليات عائلية كون أحبائهم قد تم ترحيلهم أو قتلهم. وقد قاتل معظم اليهود لأجل الكرامة والثأر والأجيال القادمة أو من منطلق الإيقاع بأكبر عدد ممكن من الأعداء قبل سقوطهم صرعى. ولم تؤمن إلا فئة قليلة بورود فرصة الإنقاذ الجماعي من خلال القتال وإنْ كان هناك الكثيرون الذين راودهم أمل بقاء بعض المقاتلين على قيد الحياة لمواصلة قتالهم بعد زوال الغيتو وربما لسرد قصتهم فيما بعد.

أما ممارسة حياة الأنصار (partisans) فكانت عسيرة للغاية بالنسبة لليهود. لقد وصل يهود كثيرون إلى غابات أوروبا الشرقية قبل بسط رعاية السلطات السوفياتية على نشاط الأنصار مما جعلهم يفتقدون إلى إطار داعم. وكان الأنصار اليهود يعانون من قسوة العيش في العراء حيث أنهم لم يكونوا مؤهَّلين له بالنظر إلى قلة علمهم بنمط العيش في الغابة قبل نشوب الحرب وكونهم قد وصلوا إليها في حالة من الإرهاق الجسدي والنفسي. وقد فرّ العديد منهم إلى الغابات مذعورين من هول القتل الذي تعرضوا له خلال عمليات الترحيل ، ينتابهم الخوف أنهم لن يشاهدوا أبناء عائلاتهم وأصدقائهم ثانية. زد على ذلك أن الأنصار اليهود – بخلاف زملائهم

غير اليهود – لم ينالوا إلا نادراً معاملة لطيفة من جانب الفلاحين المحليين الذين كانوا يعتمدون عليهم للحصول على حاجياتهم الأساسية ، ناهيك عن قيام بعض السكان المحليين بكسب "أرزاقهم" من خلال الكشف عن اليهود في الغابات وتسليمهم إلى الألمان. كما أن الأنصار غير اليهود كثيراً ما كانوا يعتدون على اليهود الذين صادقوهم سطواً وقتلاً. ولم يكن بعض اليهود الذين فروا إلى الغابات من غير المقاتلين فحسب بل كان كثير منهم من المسنّين أو الصبيان مما زاد من الأعباء الملقاة على عاتق المقاتلين اليهود الذين اعتنوا بأمرهم وجعلهم يقيمون مخيمات عائلية لهم (أنظر أيضاً مادة المخيمات العائلية في الغابات). وفي ظل هذه العوائق ليس من الغرابة أن يكون أغلب اليهود الذين فروا إلى الغابات قد عجزوا عن الصمود إزاء محنتهم. غير أنه يجب التنويه بالمقابل إلى أن المئات من الأنصار اليهود قد قُلدوا أوسمة تقديراً لبطولاتهم ونجاتهم بأعجوبة من احتكاكهم المتواصل بالموت ومن ثم إقدامهم على سرد حقيقة ما تعرضوا له.

وكان لجوء العديد من اليهود إلى مخابئ خارج حدود الغيتو يشكل صنفاً آخر من صنوف المقاومة. لم يكن الاختباء أقل شدة من الفرار إلى الغابات وإنْ اختلفت المشاكل في كلتا الحالتين. وكان المشكل الأول الذي واجهه هؤلاء يتمثل بكيفية الخروج من الغيتو دون رصدهم ومن ثم كان عليهم البحث عن ملاذ آمن مما اقتضى إما العثور على شخص موضع الثقة يوفر لهم المسكن واللوازم الأساسية أو الحصول على أوراق ثبوتية تشكل غطاء مقنعاً ليهودي يتظاهر بأنه من غير اليهود. ولم يتمتع جميع اليهود بشبكة من الاتصالات الكفيلة بترتيب هذه الأمور قبل الإقدام على الفرار مما جعلهم يسقطون ضحايا في أيدي أعدائهم بعد فترة وجيزة. وكان ثمة يهود آخرون تمكنوا من تدبير شؤونهم قبل الهروب من الغيتو إلا أن الحظ العاثر طاردهم ليتم في نهاية المطاف القبض عليهم. وبالتالي كان عدد اليهود الذين تمكنوا من الاختفاء عن أنظار مَن لاحقهم إلى أن حان يوم التحرير قليلاً نسبياً. وقد تلقى أولئك اليهود عادةً مساعدات بدافع الإيثار من أشخاص غير يهود تم تكريمهم فيما بعد على اعتبارهم أنصار الشعب اليهودي.

غالباً ما كان الاختباء تجربة شديدة القسوة. إذ كان الخوف الدائم يراود كل مَن كان يستخدم أوراقاً مزوَّرة ، كما أن اليهود لم يواجهوا في كثير من المخابئ المخاوف من مغبة إلقاء القبض عليهم فحسب بل الظروف المادية التي يستحيل تقريباً وصفها أيضاً. وهنالك حكايات عديدة ليهود اختبأوا وراء جدران وهمية داخل أقبية أو حظائر رطبة ومظلمة تغزوها الحشرات أو في

أماكن لم يستطيعوا فيها الوقوف منتصبين. وكان الألم النفسي المصاحب للعذاب الجسدي ضخماً إلا أن الرغبة في البقاء على قيد الحياة لم تقلّ عنه ضخامة.

أوروبا الغربية:

لقد اجتاح النازيون واحتلوا في الفترة ما بين شهرَي أبريل – نيسان وحزيران – يونيو من عام 1940 أراضي أوروبا الغربية من النرويج شمالاً وحتى فرنسا جنوباً. وفي جميع الدول التي أصحبت تخضع للسيطرة النازية كانت هناك سِمات مشتركة للاحتلال وأنماط اضطهاد اليهود. ولم يتم إنشاء غيتوات مغلقة في أي من هذه الدول. وبالتالي كان أقرب مثال للغيتوات في أوروبا الشرقية هو الحي اليهودي في العاصمة الهولندية أمستردام. كما لم يتعرض اليهود في بلدان أوروبا الغربية لممارسات الإهانة والخزي أو للخسائر المادية مثلما تعرضوا له في حياة الغيتو. وكانت معاناة اليهود المادية – ما لم يتم حبسهم - أشبه ببقية السكان في أوروبا الغربية مما كانت تماثل يهود شرق أوروبا.

وقد تم إنشاء المعسكرات المحلية لإيواء اليهود في كل من فرنسا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا. وكانت بعض هذه المعسكرات قد أُقيمت لاعتقال يهود أجانب خضعوا فيما بعد للسيطرة الألمانية المباشرة مما جعلها ممراً في طريق الترحيل إلى معسكرات أوروبا الشرقية. وقد اختلفت الظروف في تلك المعسكرات في أوروبا الغربية عن بعضها البعض كما أنها تفاوتت في فترات مختلفة من تأريخ هذه المعسكرات. غير أنه يمكن القول إجمالاً إن الحياة فيها اتّسمت ببيئة مادية سيئة وطعام رديئ إضافة إلى أنواع من العمل المكرر الممل. أما لدى إخضاع هذه المعسكرات للقادة النازيين فكثيراً ما اختلّت الأوضاع فيها. وفي فترة عمليات الترحيل شرقاً تزايد الضغط لدى اليهود الذين انتظروا نقلهم إلى مكان مجهول. وكان أفراد العائلة يعيشون معاً في بعض المعسكرات أو على الأقل سُمح لهم بالاجتماع فضلاً عن وجود رعاية اجتماعية وإنْ كانت ضئيلة. ومهما كانت الظروف فيها مروّعة إلا أن معظم هذه المعسكرات كانت أفضل حالاً من المعسكرات في الأراضي الألمانية أو في أوروبا الشرقية حيث سادت أجواء عنيفة قاتلة.

وقد فُرضت الشارة الخاصة على يهود بلجيكا وفرنسا وهولندا في ربيع عام 1942 قبيل بدء عمليات الترحيل الجماعي إلى معسكرات الإبادة (أنظر أيضاً مادة الشارة اليهودية). وكانت هذه الشارة حيوية في محاولة النازيين فصل اليهود عن سائر أفراد المجتمع والتخلص منهم. غير أن أوروبا الغربية شهدت مظاهر من التعاطف مع اليهود بسبب حملهم هذه الشارة. وقد نشرت

صحيفة تابعة لإحدى التنظيمات الهولندية السرية في شهر مايو أيار من عام 1942 300 ألف شارة كهذه معلنة أن "اليهود وغير اليهود متحدون ولا فرق بينهم". أما الأسطورة الخاصة بملك الدنمارك وهو يركب حصاناً أبيض في شوارع كوبنهاغن حاملاً الشارة اليهودية على صدره فلا تعدو كونها أسطورة إلا أنها تعكس موقف الدنماركيين الحقيقي الذي أدى إلى إنقاذ مواطنيهم اليهود.

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن كل دولة كانت تسودها ظروف خاصة أثرت إلى حد بعيد في مصير اليهود القاطنين فيها. وبحسب المؤرخ ماكسيم ستاينبرغ فإن هذه العوامل المتنوعة وتمظهراتها المختلفة هي التي أدت إلى اختلافات أساسية بين هذه الدول من قبيل حقيقة ترحيل 80% من يهود هولندا مقابل 40% من يهود بلجيكا و 25% فقط من اليهود الفرنسيين. ولكن لم يكن لجميع هذه العوامل ذات الثقل في كل دولة.

وقد خضعت كل دولة من دول أوروبا الغربية لنظام حكم مغاير يحمل مميزات خاصة به. وكانت بلجيكا مثلاً تحت حكم عسكري ألماني فيما تشكلت حكومة بلجيكية منفية في لندن كما أن مسؤولي الخدمة المدنية الذين بقوا في بلجيكا لم يدعموا "النظام الجديد" الألماني في البلاد. أما هولندا فخضعت لإدارة ألمانية مدنية تولّت مقاليدها قوات ال-SS النخبوية النمساوية فيما سار كبار موظفي الخدمة المدنية الهولنديين على الخط الذي رسمه الألمان. وبدورها شهدت فرنسا نظاماً أكثر تعقيداً حيث احتل الألمان شمال البلاد فيما سيطرت حكومة فيشي على جنوبها. وبالتالي تمتعت فرنسا من جهة بأكبر قدر ممكن من الاستقلال عن ألمانيا وأبدت استعدادها لتلبية العديد من المطالب الألمانية الخاصة باليهود من أجل ضمان الحكم الذاتي في مجالات اعتبرتها أكثر أهمية لها ، ولكن مساحة الاستقلال الأوسع – مقارنة ببلجيكا وهولندا – تمثلت أيضاً بالتعامل مع اليهود إذ كان للمسؤولين الفرنسيين تأثير أكبر على توقيت وبؤرة الإجراءات المعادية لليهود.

وكانت مسألة الجنسية تلعب أحياناً دوراً هاماً في تحديد مصير اليهود. إذ تمتع المواطنون في فرنسا وبلجيكا بحماية أفضل من اللاجئين الذين لم يتم تجنيسهم. ولذا كان معظم اليهود الذين تم ترحيلهم في كلا البلدين من غير المواطنين. وقد أقام الفرنسيون معسكرات انتقالية لليهود غير المواطنين حتى قبل فترة عمليات الترحيل شرقاً. وفي بلجيكا شرعت السلطات الألمانية في حبس اللاجئين اليهود قبل فترة تطبيق الحل النهائي. أما بالمقابل فلم تكن لمسألة الجنسية أهمية

كبيرة في تحديد مصير اليهود في كل من هولندا والدنمارك والنرويج. وتم إنقاذ 7200 يهودي من أصل 8000 يهودي كانوا يقيمون في الدنمارك سواء أكانوا من أصحاب الجنسية أم لا. أما في النرويج حيث تم ترحيل نصف اليهود فيما فرّ النصف الآخر إلى السويد فلم تكن مسألة الجنسية ذات وقع شديد بدليل أن نسبة اللاجئين الناجين كانت تماثل نسبة المواطنين الذين تم إنقاذهم. وفي هولندا تم ترحيل معظم اليهود سواء من أصحاب الجنسية من عدمه عن طريق معسكر الانتقال وستربورك.

وكانت ردود أفعال الأفراد اليهود في تلك البلدان متنوعة إلى حد كبير. حيث شعر اليهود من سكان الدول التي تعاونت مع الألمان أو طبقت "النظام الجديد" لهم بمرارة الخيانة التي تعرضوا لها فيما كانت نظرة اللاجئين اليهود للأحداث مغايرة. وفي فرنسا على سبيل المثال كان سيل الدعاية اللاسامية مؤلماً بوجه خاص بالنسبة لليهود أبناء هذا الوطن أصلاً لأن اليهود المندمجين في المجتمع الفرنسي كثيراً ما أحسوا بأنه لم يعُد لديهم مجتمع للاستناد عليه. أما اللاجئون الذين لم يصبحوا فيما قبل ذلك جزءاً من النسيج الاجتماعي فلم تراودهم نفس المشاعر. كما أن اليهود الذين لم يولدوا في فرنسا كانت لديهم حياة اجتماعية أكثر ديناميكية في كثير من مناحي الحياة مما ساعدهم على تجاوز ويلات الحرب. كما كان اللاجئون أكثر ميلاً للانخراط بالعمل السري أو محاولة الفرار أو القتال مما نتج ولو جزئياً عن حقيقة تعرضهم لخطر أكبر من غيرهم.

ويجب التنويه أيضاً إلى أن بعض دول أوروبا الغربية منحت فرصاً أكبر لمحاولات الإنقاذ من غيرها. إذ كانت فرص الإنقاذ المتوفرة في فرنسا مثلاً تزيد عما كانت عليه في هولندا وهي بلد ساحلي محاط بأراضي خضعت للسيطرة الألمانية. وبالتالي كانت منطقة جنوب فرنسا طوال فترة لا بأس بها أكثر أمناً من الشمال الفرنسي مما جعلها ملاذاً لليهود. كما كانت الأراضي الفرنسية الخاضعة لحكم إيطالي لبعض الوقت أشد أمناً من المناطق التي احتلها الألمان الأمر الذي جعلها ملاذاً محتملاً أيضاً. وكانت إسبانيا وسويسرا اللتان اتخذتا موقف الحياد من الحرب تحدّان فرنسا. وأخيراً تجب الإشارة إلى أن الفلاحين الفرنسيين كثيراً ما وافقوا على إخفاء اليهود خاصةً الأطفال سواء لدوافع إنسانية أو من منطلق تحدي الألمان. غير أننا نعلم أيضاً بأن الكثير من المواطنين الهولنديين – وعلى رغم اختلاف الظروف مع فرنسا – حاولوا أيضاً إنقاذ جيرانهم اليهود ولكن دون جدوى.

وكانت المعضلات الشخصية التي واجهت اليهود في أوروبا الغربية تشابه في أكثر من بُعد مشاكل اليهود في أوروبا الشرقية. حيث كانت المشاركة في أي نشاط سري ستعني في أوروبا الغربية كما الشرقية تحمّل المسؤولية عن إجراءات عقابية بحق أفراد العائلة. وعلى اعتبار أن الحياة العائلية في أوروبا الغربية كانت أقل تفككاً إلى حين بدء عمليات الترحيل فقد كانت المعضلات الناتجة عن تمزيق أوصال الأسرة أقل حضوراً لدى ممارسة الحياة اليهودية.
وبالتالي لم تقتصر محاولات الاختفاء أو الفرار على الأفراد بل شملت عائلات بعينها. غير أن محاولات إنقاذ الأطفال دون غيرهم – التي كانت ظاهرة مألوفة – قد تمت وسط قلق عميق بوطء الانفصال الذي كان في كثير من الحالات نهائياً.

في المعسكرات:

لقد أنشأ الألمان وشراكؤهم سلسلة من المعسكرات تُعرف عامةً بمعسكرات التجميع وكانت تتألف من معسكرات عمل ومعسكرات انتقالية وبطبيعة الحال معسكرات الإبادة أيضاً. ورغم القواسم المشتركة بين جميع هذه المعسكرات في ظل الواقع القاسي والخالي من الإنسانية الذي كان يسودها إلا أن الظروف فيها كانت متباينة حتى داخل نفس المعسكر مع مرور الزمن. وقد تأثرت الظروف الحياتية في معسكر معيّن بعوامل مختلفة ومنها تغييرات في السياسات النازية وتشكيلة طواقم العاملين في المعسكر وتدفق النزلاء الجدد أو اقتلاعهم أو موتهم وكذلك تطور وقائع الحرب. وقد دخل اليهود هذه المعسكرات بعد خوضهم تجارب مختلفة حيث كان بعضهم قد تعرض فيما قبل ذلك لعذاب الغيتو أو معسكر الانتقال المحلي (من قبيل المعسكرات الانتقالية الفرنسية أو الهولندية) فيما كان هناك يهود آخرون لم تطأ أقدامهم أرض الغيتو وربما تعرضوا للترحيل المباشر من منازلهم. كما كان هناك بعض اليهود الألمان والهنغاريين الذين وصلوا إلى المعسكرات بعد حصر إقامتهم داخل مبانٍ يهودية خاصة في أماكن سكناهم. وكما أسلفنا فإن طول الرحلة إلى المعسكر كان عامل تفاوت أيضاً وإنْ كانت رحلة القطار بحد ذاتها تجربة معذبة. ورغم هذه الاختلافات كانت هناك قواسم مشتركة بين تجارب المعسكرات التي مر بها اليهود من حيث الصعوبات الجسدية والنفسية المرعبة والحضور الشامل للموت.

وكان على الفرد أن يواجه داخل المعسكرات عالماً كان أساساً منافياً لظروف العيش في فترة ما قبل الحرب. إذ كانت الحياة في معظم المعسكرات النازية تقريباً ، وعلى امتداد فترة وجودها ، ضئيلة القيمة بشكل عام فيما كانت حياة اليهود الأقل ثمناً بنظر النازيين. وبالتالي كان نزع الإنسانية ملمحاً دائم الوجود في حياة المعسكر. ولم يتم التعامل مع النزلاء بأسمائهم بل بأرقام.

وكانت عملية تعداد المعتقلين بأرقامهم تحمل طابعاً قاسياً يجرّدهم من إنسانيتهم علماً بأنها كانت تجري مرتين يومياً أي عند الصباح الباكر قبيل التوجه إلى العمل ثم تعاد مساءً لدى انتهاء العمل. وقد أُرغم النزلاء على الوقوف صامتين ثم تم استدعاؤهم بصرخات وقام الحراس بتعدادهم. أما إذا غاب أحد المعتقلين فاستمر هذا الإجراء ربما لساعات إلى أن اتضح سبب تغيبه. وكان على النزلاء أن يتحملوا المجاعة والعطش والإجهاد إلى حين انتهاء التعداد.

وقد سادت المعسكرات النازية المعاناة المستديمة. وكان الضرب أحد المظاهر الدائمة في حياة المعتقلين وإن كان هناك حراس (Kapos) أشد وحشية من غيرهم. وكان المعتقلون عرضة للضرب القاسي إلى حد الموت أحياناً لمجرد إقدامهم على خروقات – سواء أكانت كبيرة أو صغيرة – للأنظمة المتبعة أو حتى بدون أي سبب سوى الوحشية التي لم يسبقها أي استفزاز. ويستحيل تشبيه واقع المعسكرات بالحياة المتحضرة. إذ كان المعتقلون ينامون على أسرّة خشبية قاسية كانت مغطاة أحياناً بالقشّ ذي الرائحة الكريهة الذي يغزوه القمل وكانوا يلتحفون بلحاف بالٍ رث ملوث. ولم تكن هناك مراحيض بما يكفي بل كانت المراحيض المتوفرة قذرة وتتصاعد منها رائحة نتنة لا يمكن وصفها. وبسبب انتشار وبأ الزحار في المعسكرات النازية كان المعتقلون دوماً يحتاجون لقضاء حاجتهم لكنهم لم يصلوا المراحيض في الوقت إلا نادراً مما جعل النتانة تُشتم في كل أنحاء المعسكرات.

وكانت المجاعة "سيدة" المعسكرات النازية. ولم يتسلم النزلاء عادةً سوى قطعة طعام يحتاجها البالغون لممارسة العمل كما أن هذا الطعام كثيراً ما كان غير صالح للأكل. وكانت نوعية الأكل أفضل حالاً بعض الشيء في الأماكن والأوقات التي اهتم النازيون باستغلال المعتقلين للعمل. كما كان الماء الصالح للشرب قليلاً على الدوام. وروى الناجون من معسكر الإبادة أوشفيتش – بيركناو أنهم كانوا يشعرون بإحباط مضاعف كونهم شاهدوا حولهم الماء عندما كانوا شديدي العطش فيما أنهم أدركوا أن إقدامهم على شرب الماء سيكون فتاكاً لأن الماء كان ملوثاً. وفي ظل ندرة الماء استحال على المعتقلين الحفاظ على النظافة. وكتب بريمو ليفي عن أحد النزلاء الذي كان يعتاد على الاستحمام يومياً بخرقة وقليل من الماء. وعندما سأله ليفي عن دوافعه كونه بقي متّسخاً بعد ممارسة العادة أيضاً أدرك فجأة أن الاستحمام لم يكن لغرض النظافة مثلما كان لأجل الاحتفاظ ببقايا الكرامة الإنسانية.

وكان العمل عنصراً دائماً آخر في حياة المعسكر حيث كان المعتقلون يمارسون شتى الأعمال. وكان أشدها هو العمل الشاق في الخلاء بمراقبة الحراس الهمجيين إذ لم يكن بإمكان المعتقلين الذين مارسوا هذا العمل توقع البقاء على قيد الحياة إلا لفترة قصيرة. أما المهمة الفضلى في تلك الظروف الحالكة فكانت على الأرجح العمل في إعداد الطعام وهي وظيفة كانت تفسح المجال أمام الحصول على مزيد من الطعام مهما كان ضئيلاً على اعتبار ذلك أهم عنصر للبقاء حياً. كما اعتُبرت أعمال أخرى مهنية أو داخل جدران المعسكر فرصة جيدة. أما معسكرات الإبادة فقد كانت الوظيفة الأشد مفارقة من غيرها من نصيب المعتقلين الذين التحقوا بما اصطُلح عليه "الوحدة الخاصة" (sonderkommando) التي كانت تعمل داخل محارق الغاز وفرن إحراق الجثث. إذ كانت وظيفة هؤلاء شنيعة لدرجة تفوق الوصف كما أنهم مارسوا عملهم إدراكاً منهم أن دورهم سوف يأتي لا محالة ، غير أن العمل في صميم آلة القتل النازية منح هؤلاء المعتقلين فرصة للحصول سراً على أغراض كانت تعود للضحايا ثم مقايضتها بالطعام والدواء أو الحاجيات الأساسية الأخرى التي توفرت في الاقتصاد السري ولكن النشط داخل المعسكر. ولذلك ليس من الغرابة بمكان أن المنطقة داخل معسكر بيركناو التي كانت بمحاذاة فرن حرق الجثث حيث تم فرز أمتعة الضحايا وتخزينها قد سُميت "كندا" في إشارة إلى دولة كانت رمزاً للوفرة والثراء.

وقد عانى العديد من المعتقلين من الأمراض بفعل أثر الظروف العامة في المعسكرات والعمل الشاق والتغذية الهزيلة. وقد لحق الزحار بالجميع تقريباً وأضعف أجسامهم الواهنة أكثر فأكثر مما جعلهم عرضة للموت. وقد كان طاقم العمل في المعسكر كثيراً ما ينتقي السجين الذي تعرض للزحار ويوعز بقتله أو أنه انهار وفارق الحياة تلقائياً. كما أوقعت حمى التيفوس الآلاف المؤلفة من الضحايا في المعسكرات. وعندما حرر البريطانيون معسكر برغن بلزن وشاهدوا أكواماً من الجثث والآلاف من المرضى والسجناء المحتضرين ظنّوا أنهم عثروا على معسكر للإبادة فيما أنهم وصلوا في حقيقة الأمر إلى معسكر للتجميع حيث تم إلقاء السجناء فيه عند نهاية الحرب وحيث اجتاحهم وباء التيفوس.

وكان من المحتمل أن لا يقل العذاب العاطفي داخل المعسكرات ضخامةً عن الاضطراب الجسدي. وقد تم تفكيك رباط الأسرة بمجرد وصول أفرادها معاً إلى أرض المعسكر وذلك على أساس فصل الجنسين واستحالة التواصل بينهما ما عدا قلة قليلة من المعسكرات العائلية. وقد حدث بالطبع أن تكون العائلة قد وصلت دفعة واحدة إلى معسكرات الإبادة وتم القضاء عليها في

نفس اليوم غير أن بقاء جميع أفرادها معاً في أقسام العمل من هذه المعسكرات كان من قبيل المستحيل. وبالتالي عاش معظم السجناء وهم يشعرون بمرارة فقدان عائلاتهم وأصدقائهم وأبناء مجتمعاتهم المحلية. وقد يكون قد تم وضع اثنين أو أكثر من أفراد العائلة معاً كما ارتبط الأصدقاء أحياناً في إطار مجموعة شبيهة بالعائلة. وقد تزايدت فرص بقاء المعتقلين وهم موحَّدون إلا أن غالبيتهم كانوا يعاشرون الموت سواء أكان ممثلاً بوفاة أحبائهم أو موت المحيطين بهم باستمرار ومن ثم الموت المحدق بهم. وكانت هذه المشاعر وما يصاحبها من نزع الإنسانية والصعوبات المادية من نصيب جميع المعتقلين اليهود. وقد تطلع بعضهم إلى الماضي البعيد طلباً للعزاء وحاولوا تخيل مستقبل أكثر إشراقاً. وحصل آخرون على "مهارات المعسكر" وتعلموا كيفية دعم أنفسهم قدر المستطاع وسط هذه الأوضاع الميؤوس منها. غير أن آخرين سُحقوا سحقاً وتخلوا عن إرادة الحياة ليصبحوا ما عُرف بلهجة المعسكر "موزلمان"(هي تسمية شائعة بين معتقلي معسكرات الاعتقال للمعتقل الذي يشرف على الموت جراء الجوع والإرهاق والاستسلام لمصيره).

وقد اتخذت مقاومة النازيين داخل المعسكرات أشكالاً متعددة إذ شُكلت في العشرات منها تنظيمات سرية وثار بعضها. غير أن المقاومة الأكثر شيوعاً كانت تتمثل برفض إجراءات نزع الإنسانية الظالمة. ربما وجدت هذه المقاومة تعبيراً لها في الروتين اليومي من الاغتسال المتكرر كما وصفه بريمو ليفي أم أنها تمحورت حول دراسة تنتظم يومياً لمقطع من التلمود عُثر عليه في المعسكر كما كتب ديفيد فايس – هاليفني في مذكراته. وقد تكون المقاومة تجسدت بمحاولة الحصول على دواء من أجل أحد الأحباء أو بمجرد ملامسة راحته لدى مفارقته الحياة. وكان العديد من المعتقلين يتعمدون تخريب عملهم ما أمكن لا سيما عند إدراكهم أن نتاج هذا العمل كان من شأنه دعم المجهود الحربي الألماني. ولم تحاول إلا أقلية صغيرة نسبياً من سكان المعسكرات – وإنْ بلغت الآلاف حصراً – الفرار. ولم يتمكن معظم الفارين من اجتياز السياج المحيط بالمعسكر (علماً بأن بعضهم أجهض محاولته عمداً بقصد الانتحار) إلا أن حالات من النجاح سُجلت أيضاً. وقد بلغت العالم الخارجي في ربيع 1944 أول تقارير مفصلة من شهود عيان عما يجري في معسكر أوشفيتش – بيركناو بفضل محاولتَي فرار ناجحتين وتم نشر محتويات هذه الإفادات تحت مسمى "محاضر أوشفيتش".

<u>هنغاريا (المجر)</u>:

وكان من أهم مميزات "محاضر أوشفيتش" المنوَّه بها تنبيهها إلى إعداد المعسكر لاستقبال يهود هنغاريا لغرض إبادتهم. وكانت هنغاريا حتى يوم ال-19 من شهر مارس آذار عام 1944 فضاء آمناً نسبياً لليهود إذ لم تواجه هذه الجالية الكبيرة التي تجاوز عدد أفرادها ال-800 ألف نسمة (حسب التعاريف العنصرية المتبعة حينذاك) إلا حوادث قتل قليلة في منطقة كامينتس – بودولسكي وكذلك في الأراضي الهنغارية المقتطعة من يوغوسلافيا. وقد ذاعت هذه الحوادث بين الناس على اعتبار أنها لم تتكرر كما أن الحكومة الهنغارية تظاهرت بملاحقة القتلة في المناطق اليوغوسلافية مما جعل معظم اليهود الهنغاريين يشعرون بأن حكومتهم سوف تحميهم. كما عُرف المصير القاتم إلى حد الموت في كثير من الأحيان الذي كان من نصيب الرجال اليهود الذين انخرطوا رغماً عنهم بمنظومة العمل القسري الهنغارية (في إطار وحدات خاصة التحقت بالقوات المسلحة الهنغارية) ، غير أن هذا الأمر لم يخلق لدى عموم اليهود الهنغاريين الشعور بأنهم معرضون لخطر الموت. وبالفعل لم يواجه اليهود داخل حدود هنغاريا حتى عام 1944 خطراً داهماً من هذا القبيل إذ ردت الحكومة الضغوط التي مارسها عليها الألمان للسماح لهم بحل قضية اليهود نهائياً. غير أن هذه الأوضاع قد تغيرت جذرياً وساءت كثيراً لدى الاحتلال الألماني المباشر لهنغاريا في شهر مارس آذار من عام 1944.

ويتعلق أحد أهم التساؤلات التي تحيط باليهود الهنغاريين في فترة الاحتلال الألماني بمدى علمهم بما يجري. وقد أفاد العديد من الناجين من يهود هنغاريا أنهم لم يكونوا على اطّلاع بوجود الحل النهائي إلا عندما وصلوا إلى أوشفيتش وشاهدوا بأعينهم واشتموا رائحة الدخان المتصاعد من أفران حرق الجثث في بيركناو حيث روى لهم المعتقلون الأقدمون أن الدخان يتصاعد من جثث أقربائهم التي تم حرقها. غير أن هناك أدلة كثيرة تؤكد أن المعلومات حول قتل اليهود كانت متوفرة في هنغاريا حتى قبل الاحتلال الألماني لها. إذ روى الآلاف من اللاجئين اليهود من بولندا وسلوفاكيا تجاربهم الشخصية وقدموا المعلومات التي كانت بحوزتهم حول النشاطات النازية القاتلة. كما تحدث جنود هنغاريون ويهود أجبروا على العمل القسري عما بلغ مسامعهم. وكانت القيادات اليهودية الهنغارية على صلة مع مجموعة عمل تابعة للتنظيم السري اليهودي في سلوفاكيا حيث أنهم استقوا منها معلومات عن قتل يهود سلوفاكيا وبولندا. كما شكلت لجنة الإغاثة والإنقاذ الصهيونية في بودابست التي ترأسها ريتسو كاستنير وأوتو كومولي - مثلها مثل حركات للشبيبة الصهيونية – قناة لإرسال المعلومات حول عمليات القتل هذه إلى "العالم الحر". وحاول ممثلو حركات الشبيبة الصهيونية ، غالباً دون جدوى ، تحذير عدة مجتمعات محلية خارج بودابست مما يحدق بهم في حال وصول النازيين إلى هنغاريا.

كيف يمكن أن تكون المعلومات متوفرة دون أن يتنامى معها الوعي اللازم؟ لا إجابة بسيطة على هذا السؤال. إن الإجابة تكمن جزئياً في الطابع غير المسبوق للهولوكوست الذي جعل من الصعوبة بمكان على أي كان وحيثما كان اختصار المعلومات وتكوين صورة شاملة لعمليات القتل الألمانية الجماعية المُمَنهجة بحق اليهود. وكان الكثير من اليهود الهنغاريين يعتقدون بأن الأخبار التموارة إليهم حول القتل مبالغ فيها إلى حد كبير. كما كان هناك أشخاص ظنوا بأنهم لن يتعرضوا للقتل حتى وإن أصبح يهود آخرون عرضة له. ورأى يهود آخرون كثيرون أن الهنغاريين قد لا يستحسنون اليهود لكنهم لن يصبحوا جزءاً من مخطط جماعي ممنهج لقتلهم فيما اعتبر آخرون أن الحرب بلغت مرحلة متأخبرة وبالتالي لن يطأ القتل عتبات بيوتهم. ولذلك لم يكن "جهل" اليهود الهنغاريين مفتعلاً ولم ينم قط عن الغباء بل كان بالأساس نتاج قصور خيالهم.

كما صار من الأصعب إدراك حقيقة القتل بسبب تسارع الأحداث خلال فترة الملاحقة والترحيل ثم القتل. وبخلاف اليهود في ألمانيا أو بولندا الذين خبروا فترة طويلة من الاضطهاد النازي بلغت ذروتها بالقتل مما أتاح لهم بعض الوقت لدراسة طبيعة مَن يمارس الاضطهاد بحقهم فإن اليهود الهنغاريين واجهوا عمليات القتل بصورة شبه فورية بعد دخول الألمان إلى بلادهم كونها قد انطلقت بعد مضي شهرين ليس إلا على احتلالهم. وكانت الإجراءات العنيفة المتمثلة بسلب ممتلكات اليهود ونقلهم إلى الغيتوات قد تبعتها على جناح السرعة عمليات الترحيل مما لم يسمح للأفراد إلا بفترة قصيرة من عدمها ليحاولوا الاختفاء أو الفرار ، لا بل إن العنصر الأكثر ديناميكية في المجتمع اليهودي أي الشبان الذين كان قد جرى تجنيدهم إلى العمل القسري لم يحضروا الساحة لدعم عائلاتهم. على كل فإن العديد من الشبان اللاجئين الذين مارسوا الحياة السرية وأفراد المجموعات الأرثوذكسية اليهودية القاطنين قرب الحدود قد فروا إلى رومانيا التي كانت آمنة نسبياً في تلك الفترة.

لم يبق عند حلول شهر يوليو تموز 1944 بعد الموجة الأولى من عمليات الترحيل سوى اليهود الذين يشتغلون في وحدات العمل القسري أو اليهود المقيمين في بودابست. وقد انطلقت في بودابست عملية إنقاذ واسعة النطاق اشترك فيها دبلوماسيون محايدون وجهات يهودية – معظمها من حركات الشبيبة الصهيونية – لدعم بقايا الجالية. وعلى اعتبار أن الإنقاذ كان يقوم على الحماية التي منحتها لليهود جهات دبلوماسية مختلفة والدول التي فوّضتها إضافةً إلى تنظيمات دولية فإن الأفراد اليهود تدافعوا للحصول على أوراق الحماية التي أصدرتها تلك

الهيئات. كما تمكنت حركات الشبيبة الصهيونية من إنتاج وتوزيع حوالي 100 ألف ورقة مزوَّرة. وبحلول خريف 1944 أخذ يهود بودابست يستمدون الأمل بالنسبة لفرص النجاة بفضل تقدم الجيش السوفياتي أيضاً. وعلى الرغم من ترحيل عشرات الآلاف من اليهود من بودابست مشياً على الأقدام تجاه الحدود النمساوية وقتل عشرات الآلاف الآخرين داخل المدينة نفسها إلا أنه لم يبق أمام الأفراد اليهود مدعومين من الجهات التي تحركت لإنقاذهم سوى الصمود لعدة أسابيع من أجل البقاء على قيد الحياة. وإذا كان بوسع الفرد اليهودي الابتعاد عن منال القوى الفاشية الهنغارية أي "حزب السهم المعقوف" وكذلك الصمود جسدياً ومعنوياً إزاء برد بودابست القارس حيث كانت موارد التدفئة والأدوية والأغذية ضئيلة ، فإنه عزز بذلك فرص بقائه على قيد الحياة. وقد احتفظ يهود بودابست – بخلاف يهود غيتوات أوروبا الشرقية – بأمل البقاء إلى حين تحرير مدينتهم من قبضة النازيين وبالتالي فإنهم لم يتداولوا بجدية في خيار المقاومة المسلحة إلى حد الانتحار.

مسيرات الموت:

في عزّ عمليات ترحيل يهود هنغاريا إلى معسكرات الإبادة في شهر يونيو حزيران من عام 1944 كان الألمان قد بدأوا بالإعداد لإجلاء المعتقلين في تلك المعسكرات التي كانت ستصبح عما قريب ساحة للقتال بين الجيش الألماني والقوات السوفياتية. غير أن أغلب عمليات الإجلاء هذه التي أصبحت تُعرف باسم "مسيرات الموت" لم تبدأ إلا في شهر يناير كانون الثاني 1945 واستمرت متتالية إلى حين انتهاء الحرب في أوروبا في شهر مايو أيار من العام ذاته. وقد تم نقل نزلاء المعسكرات أحياناً على متن قطارات أو قوارب ولكن تعين عليهم خلال مرحلة ما من الانسحاب السير مشياً على الأقدام.

وقد فارق عشرات الآلاف من المشاركين في هذه المسيرات القهرية الحياة حيث انهار الآلاف منهم مجهدين علماً بأنهم لم يتلقوا إلا القليل من الطعام والماء من عدمه خلال إجراءات الانسحاب كما أنهم تعرضوا لعوامل الطبيعة القاسية خلال شهور الشتاء ثم الربيع من عام 1945. وكان هناك آخرون أقدم حراسهم بأوامر من المستويات الأعلى على قتلهم رمياً بالرصاص لعجزهم عن اللحاق بزملائهم. كما حدث أن حراس المعسكرات أطلقوا النار على المعتقلين قبيل انطلاق المسيرات بداعي أنهم أضعف من المشي سيراً على الأقدام. وتم أيضاً إطلاق النار على الكثير من السجناء القليلين الذين استجمعوا قواهم محاولين الفرار فيما تم العثور على آخرين في وقت لاحق وقتلهم رمياً بالرصاص ، بالإضافة إلى سجناء آخرين تمكنوا

من الفرار إلا أن السكان المحليين ألقوا القبض عليهم وسلموهم إلى حراسهم الذين قتلوهم رمياً بالرصاص. ولذلك لم يأو إلا عدد قليل نسبياً من السجناء الفارين إلى ملاذات لدى السكان المحليين. وثمة حوادث مدوَّنة أخرى تشير إلى لطافة وإحسان السكان المحليين الذين قدموا الأكل والشرب لأرتال المعتقلين المصابين بالإرهاق. غير أنه كانت هناك أيضاً مجازر أقدم عليها سكان محليون من تلقاء أنفسهم سواء أكان هؤلاء من الذين جُندوا إلى صفوف الحرس المدني أم بأوامر من القيادات النازية المحلية.

وإذا كان اليهود قد خضعوا وحدهم في فترة ما قبل مسيرات الموت لمعاملة قاتلة فإن السجناء غير اليهود تعرضوا أيضاً خلال هذه المسيرات لهذه المعاملة اللاإنسانية. بيد أن وجه الاختلاف بين كلتا المجموعتين ظل بيناً كون السجناء اليهود قد بدأوا المسيرات وهم أضعف عموماً من سائر السجناء كما أنهم بقوا طيلة المسيرة أكثر عرضة للقتل أو الموت.

وقد وجدت المآسي الفظيعة التي شهدتها مسيرات الموت تعبيراً لها في إفادات ومذكرات معظم اليهود الذين شاركوا فيها – كثيراً ما بصورة عشوائية – خلال الأشهر والأسابيع وحتى الآيام الأخيرة من الحرب. وثمة حكايات عديدة عن يهود فقدوا آخر فرد من أفراد عائلاتهم أو أعز أصدقائهم خلال مسيرات الموت. واستطاع الكثير من الذين مروا بهذه التجارب أن يشيروا بدقة إلى مكان وتأريخ وقوع حالة الوفاة هذه وهو ما عجزوا عنه بالنسبة لحالات موت سابقة لأحبائهم. وروى آخرون معاناتهم الجسدية المريعة واضطرارهم إلى تناول البقل والأعشاب التي قطفوها ، كما هناك من سردوا قصة انهيارهم وتمكنهم من استحضار أقصى طاقاتهم للنهوض في اللحظة الأخيرة ودرء الرصاصة القاتلة التي كانت ستقضي عليهم.

وكان أولئك الذين صمدوا المسيرات قد تم زجهم في معسكرات داخل الأراضي الألمانية ثم نُقل بعضهم من هذه المعسكرات في مسيرات موت أخرى. وقد واجه اليهود على العموم ظروفاً أشد قسوة في المعسكرات الجديدة مما تعرضوا له قبل انطلاق مسيرات الموت حيث كانت هذه المعسكرات مكتظة لدرجة استحالة توفير ولو أدنى مأوى أو زاد للوافدين إليها حديثاً. وليس من الغرابة أن تكون الأوبئة قد اجتاحت هذه المعسكرات حيث توفي خلال الأسابيع الأولى التي تلت التحرير الآلاف المؤلفة من المعتقلين متأثرين بالفواجع التي أصابتهم.

التحرير:

لقد قابل اليهود تحريرهم خلال عامي 1944 و 1945 في مواقع ومواقف لا حصر لها حيث يعكس هذا التعدد التشكيلة المتنوعة من التجارب التي تعرضوا لها إبان فترة المحرقة. وربما شعر اليهود الذين احتفظوا بما يكفي من قوة بفترة قصيرة من البهجة لدى تحريرهم إلا أن السجناء كانوا في كثير من الحالات قاب قوسين أو أدنى من الموت مما جعلهم غير واعين بوصول قوات التحرير. وقد توفي الآلاف فور التحرير دون أن يعلموا حقيقةً بأنهم تحرروا من نير الاحتلال النازي.

وكان همّ الناجين الأول البحث عن الأكل والشرب. وقد صادف كثيراً أن قدم لهم محرروهم من منطلق حسن النية الطعام مما أدى تالياً إلى وفاة العديد من السجناء لدى تناولهم إياه حيث لم تستطع أجسادهم هضمه. كما اجتاح بعض السجناء المحررين الذين ثارت ثائرتهم بسبب الكارثة التي حلت بهم البلدة القريبة من معسكرهم إلا أنه يبدو بناءً على إفادات ومذكرات الناجين أن الرغبة في الثأر لم تتملكهم.

وقد انطلق الناجون من براثن المحرقة من المعسكرات والمواقع الأخرى في حملات بحث عن أبناء عائلاتهم تبين فيما بعد أن لا طائل وراءها. وقد أخذ معظم الناجين سواء لدى تحريرهم أو بعد ذلك بفترة وجيزة يستوعبون حقيقة فقدانهم لكل مَن كان يعزّ عليه قبل الحرب. ولذا فإن من الخطأ الحديث عن التحرير بصفته النهاية السعيدة لكابوس مفزع. إنه كان ببساطة نهاية للتهديد الفوري بالموت ولحالة شديدة من الحرمان الجسدي. غير أن كابوس الخسارة ظل يعذب الناجين عند اليقظة ويقض مضاجعهم مدة طويلة. ورغم نجاح غالبية كبيرة من الناحين في بناء حياة جديدة إلا أن هذه الحياة لم تكن أبداً لتقابل التجارب المرعبة والخسائر التي لا تعوَّض التي لحقت بهم إبان المحرقة.